

الدول الإسلامية في شمال إفريقيا 1

الدولة الفاطمية، الدولة الزييرية

أولاً: الدولة الفاطمية في الجزائر

تشير الدراسات التاريخية أن الفاطميون من نسب علي بن أبي طالب و فاطمة بنت الرسول محمد صلي الله عليه و سلم. و لكن هناك جدل تاريخي واسع حول صحة نسب الفاطميين القادمين نحو شمال إفريقيا، بسبب إخفاء الشيعة لبيت آل النبي لفترة طويلة تخوفاً من القتل. و يعتبر مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب العربي هو عبيد الله المهدي، و لكن قبل قدوم عبيد الله إلى شمال إفريقيا، قدم قبله أئمة من الشيعة و الذين هياؤا المناخ المناسب من أجل قيام الدولة الفاطمية فيما بعد. يعود انتشار الشيعة في شمال إفريقيا آنذاك للعديد من الأسباب، منها:

- الملاحقات التي كان يعاني منها الشيعة في المشرق العربي من طرف الدول الأموية و من بعدها الدولة العباسية.
- اعتناق البربر لأفكارهم و انتشارها في شمال إفريقيا.
- كانت شمال إفريقيا آنذاك مشتتة بين الخوارج الأباضية، و المالكيون بالغضافة للصراعات القبلية، اي أنها كانت بيئة مناسبة من أجل الانتشار فيها.

وصلت الشيعة لشمال إفريقيا في أواسط القرن الهجري الثاني. و انتشرت بشكل كبير في الشرق الجزائري حالياً، إلى غاية الأوراس، قبل أن تنتشر لغاية المغرب الأقصى. من أهم القبائل البربرية التي تبنت الأفكار الشيعية كتامة، نفزة، و سماتة. في البداية لم يفكر الفاطميون بتشكيل دولة في شمال إفريقيا، و كان أول من فكر في هذا هو الإمام الشيعي أبو عبد الله، الذي أقام عند وصوله في قبيلة سكتان أحد فروع قبيلة كتامة و التي كانت

متمركزة في جبل ايكجان، الموجود حاليا في بني عزيز في سطيف. كون ابو عبد الله خلا إقامة العديد من الصداقات مع زعماء القبائل عبر الدعوة، حيث كان التعليم في البداية يقتصر على ابناء زعماء القبائل. ولكن لاقى ايضا بعض المعارضة و خاصة من طرف الزعماء الذين رأوا أن هاته السلطة الدينية قد تقضي على السلطة القبلية. لم تواجه الدعوة الشيعية آنذاك معارضة القبائل فقط، ولكن واجهت ايضا معارضة الدولة الاغلبية، و هي دولة السنة في شمال إفريقيا. لكن دولة الأغلبية كانت ضعيفة في هذا الوقت و مركزة على مقاومة البربر لها في تونس. و بهذا استطاع ابو عبد الله مواجهة المقاومة البربرية و سيطر على كل من ميلة في 902 م و كذا سطيف في 903 م. لكن تجدر الإشارة أن أبو عبد الله لم يفرط في استعمال العنف، و قد عمل على تأمين المدن و القرى، و كان يتبع حياة الزهد و ليس حياة الملوك.

نشأة الدولة الفاطمية: تأسست الدولة الفاطمية في شمال إفريقيا

بمؤسساتها في 6 جانفي 910، و ذلك بعد مبايعة عبيد الله المهدي بالإمامة في منطقة رقادة، (تونس حاليا). اهتم عبيد الله بتشكيل المؤسسات الإدارية اللازمة من أجل بناء الدولة الفاطمية، و التي كانت تضم، الهيئة الحاكمة، الحاشية، و رجال القصر، و كان أغلبهم من الذين تبعوه من الشام و اليمن. كما استعان ببعض المسلمين من الأغلبية و الذين أعلنوا ولاءهم له. من أهم المؤسسات التي قام ببنائها عبيد الله المهدي: بيت المال و ديوان الكتابة.



في الصورة المقابلة العملة الفاطمية

من الناحية الدينية، دعا ابو عبيد الله المهدي المنابر في المساجد للدعوة لكل من محمد صلى الله عليه و سلم، و علي، و فاطمة، و الحسن و الحسين، و كان يلقب المهدي أمير المؤمنين. و بهذا اصبح الحكم في الدولة الفاطمية قائما على "أحقية آل البيت بزعامة المسلمين". فالإمام يملك السلطة المطلقة و هو صاحب الخلافة الشرعي، و لقد كان عبيد الله المهدي يقدم نفسه على أنه المهدي المنتظر من أجل الأمة الاسلامية. فقد كان من عيوب الفاطميين أن الغمام عبيد الله يضيف على نفسه طابعا من القداسة، و يعتبر نفسه خليفة الله في أرضه، و يترتب على هذا وجوب الطاعة العمياء و الاخلاص اللامشروط لشخصه. الأكثر من ذلك أن عبيد الله المهدي استعمل العنف ضد الدعاة المالكيين ، و في 910 م أسس ما يعرف بديوان الكشف و هو مصلحة إدارية مهمتها

التحري عن المعارضين لمذهب الدولة الديني من القضاة، و الفقهاء، و المؤذنين. و اقاد مدارس عرفت بمدارس الدعوة و التي استعملت لاحقا في نشر التعاليم الشيعية.

معارضة أبو عبيد الله المهدي:

واجهت الدولة الفاطمية في مراحلها الأولى معارضة من شتى الأطراف، من أهمها:

- **المقاومة السنية:** حيث قاطع علماء المالكية أو المذهب المالكي الشيعة و افكارهم، ثم بدأوا بمقاومة الأفكار من خلال استعمال القوة. كان مركز النذهب المالكي آنذاك في القيروان، و قد أنكروا طابع القداسة الذي يتبناه المهدي، كما ضايقهم قيام عبيد الله المهدي بتغيير العديد من الممارسات الدينية منها: إلغاء صلاة التراويح، سب الصحابة في المنابر، و تغيير ذان المسلمين، و الدعاء المبالغ فيه للإمام في بعد صلاة الجمعة.
- **المقاومة البربرية:** واجه الفاطميون ثورتين من البربر، و الذين رفضوا سياسات المهدي. الأولى هي ثورة الزناتيين من قبيلة زناتة . كانت زناتة من القبائل المعارضة لقبيلة كتامة و التي حظيت بامتيازات من الفاطميين. و ازداد عدااء الزناتة للفاطميين عندما هاجموا على تهارت عاصمة الدولة الرستمية و استولوا عليها، لأن تهارت كانت مركزا هاما لطريق قوافلهم و تجارتهم، فضلا عن اهميتها العسكرية. هاجم الزناتيون مدينة تارت اكثر من مرة في مواجهة مفتوحة مع الفاطميين و لكن فشلوا في السيطرة عليها و اقتحامها. أما الثورة البربرية الثانية كانت من طرف الكتاميين من قبيلة كتامة. لقد اشرنا سابقا أن الشيعة قد انتشرت في مراحلها الأولى في قبيلة كتامة، و لكن كان هناك من شيوخ و اعيان القبيلة الذين عارضوا عبيد الله المهدي، و خاصة عندما حاول اتباع سياسة فرق تسد من أجل تفريقهم و إضعافهم، فكان يعين البعض في منصب الولاة و البعض الآخر يقوم بإقصائه. و من ضمن الاسباب التي قادت لزيادة معارضة الكتاميين للدولة الفاطمية، هو تبني عبيد الله لسياسة عنيفة و تجنيد البربر و إبعادهم عن قبائلهم، فضلا عن قتل أغلب اتباع أبو عبد الله، الإمام الذي نشر التعاليم الشيعية في شمال إفريقيا و كان له العديد من الاصدقاء البربر. فضلا عن ذلك، أن سياسة العنف قادت العديد للتشكيك في نسب \ابو عبيد الله المهدي و اصبح العديد يشير أنه لا يمكن أن يكون هو المهدي المنتظر. توفي عبيد الله في 3 مارس 934 عن عمر يناهز 63 عاما، و استمرت الخلافة من بعده مع آل بيته. (الخريطة السابقة توضح توسع

الدولة
الفاطمية في
شمال
إفريقيا).
حينما وافته
المنية تولى
الحكم من
بعده أبو
القاسم محمد
القائم.



ثانيا: الدولة الزييرية 971- 1148

الزييريون من قبيلة صنهاجة، وهي أحد القبائل الكبرى البربرية التي كانت تحت سيطرة الفاطميين. وتروي المصادر التاريخية أن الصنهاجة كانت تعيش حياة متنقلة ما بين الحدود الشمالية الشرقية للأوراس و مدينة تنس غربا. لقد كان الزييريون من الحلفاء المقربين للفاطميين و ساعدوهم في حروبهم ضد القبائل البربرية الثائرة، و لهذا عندما قرر الفاطميون الذهاب لمصر ، قاموا بتعيين الملك الزييري **بلكين بن زييري ليحكم** إمارة أفريقيا. و بهذا تأسست الدولة الزييرية في شمال إفريقيا في 971 م. تبذبت العلاقات بين الدولة الزييرية و الفاطميين في مصر بين الود و العلاقات العدائية و التي انتهت في الأخير بسقوط الدولة الزييرية.

• العلاقات الودية بين الفاطميين و الزييريين:

في البداية، كانت الدولة الزييرية عبارة عن إمارة إفريقيا التابعة للدولة الفاطمية في مصر. و خلال فترة حكم الملك الأول بلكين بن زييري، كانت العلاقات ودية بين الطرفين. حتى أن الدولة الزييرية قد ساعدت الفاطميين في حروبهم ضد القبيلة البربرية الثائرة الزناتة، و ساعدوهم ايضا في حروبهم ضد الدولة الأموية. خلال هاته الفترة حرصا الطرفان على تبادل الهدايا كرمز على العلاقات الطيبة، و في بعض المناسبات كانت الهدايا ترسل من

أجل الحصول على مكاسب سياسية. ففي 977 أرسل بلكين بن زيري هدية للخليفة الفاطمي، و طالبه بعدها برغبته بضم كل من طرابلس و سرت إلى الدولة الزيرية، و بالفعل منح الخليفة الفاطمي الأمر بذلك. كان الزيرون يحاولون إعلان ولائهم للدولة الفاطمية من خلال اعلان تبعيتهم للخلافة الشيعية في مصر، و الدعاء للخلفاء الفاطميين في المنابر، و دعمهم في الحروب. لكن بعد وفاة الحاكم الأول للدولة الزيرية بلكين بن زيري بدأت المطامع الزيرية تتضح من أجل الاستقلال عن الخلافة الفاطمية.

• توتر العلاقات بين الدولة الزيرية و الفاطميين:

توفي بلكين بن زيري في 984 م و حكم ابنه منصور بن بلكين من بعده، و بعدها باديس بن منصور. بدأت طموحات الاستقلال تظهر مع خليفة بلكين منصور، و الذي أشار لوفد عندما جاء من أجل تهنئته لاعتلائه الحكم في 984م أنه لن يولى بكتاب أو يعزل بكتاب، أي بما معناه أن قبائل البربر متواجدة منذ القدم في المنطقة و لديها أحقية الحكم في المنطقة. إذ أن الحاكم الجديد لم يكن مقتنعا بتبعية إفريقيا سياسيا إلى المشرق. و كرد على النوايا الانفصالية، قام الفاطميون بدعم قبيلة كتامة المنافسة للزييريين و تزويدها بالسلاح و الجيش مقابل الولاء. عندها توجه الحاكم المنصور إلى مركز كتامة، و سيطر على سطيف و ميلة بعد قتل قائدهم. كانت هاته الحملات خلال 988م و 989 م. ساعدت الغيرة القبلية و التنافس القبلي على تنامي العداء بين صنهاجة و كتامة، و قد استغل الفاطميون هذا من أجل منع الدولة الزيرية من مد نفوذها في شمال إفريقيا. مع ذلك، استطاعت العائلة الحاكمة الزيرية توسيع مناطق النفوذ و قد وصلت لغاية المغرب الأقصى.

عند حكم باديس بن المنصور بن بلكين، دخل في مواجهة مسلحة و معلنة مع الفاطميين. في سنة 1048، أعلنت الدولة الزيرية على لسان حاكمها عودتها للمذهب المالكي السني، و التحاقها بالخلافة العباسية في المشرق. قامت الدولة الزيرية أيضا بصك العملة النقدية الخاصة بها و المنفصلة عن الدولة الفاطمية و ألغت الرايات الفاطمية. و كرد فعل على ذلك، قامت الدولة الفاطمية بتجنيد قبائل العرب من بني هلال و بني سليم في مصر، و أغرتهم بالغنائم من أجل السيطرة على المغرب. و بالفعل قامت كل من بني هلال و بني سليم بغزو المغرب، مما أدى لتراجع نفوذ الدولة الزيرية و أضعافها لغاية سقوط عاصمتها في 1148.

